Journal Of the Iraqia University (76-9) October (2026)

ISSN(Print): 1813-4521 OnLine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at: https://www.mabdaa.edu.iq

سيميائيات الاختفاء في رواية "بلا أثر" لمحمد علي محمد

د. يحيى معروف (الكاتب المسؤول)
جامعة الرازي -كرمانشاه كلية الآداب والعلوم الأنسانية قسم اللغة العربية وآدابها
y.marof@yahoo.com
محمد كريم مرتضى طالب في مرحلة الماجستير في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة رازي، كرمنشاه.
mhmdalqrhlwsy498@gmail.com

Semiotics of disappearance in the novel "Without a Trace" by Muhammad Ali Muhammad

Mohammed Karim Murtada

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة سيميائيات الاختفاء في رواية "بلا أثر" للكاتب محمد علي محمد، بوصفها نصاً روائياً يشتغل على ثنائية الوجود والعدم، والحضور والغياب، والذاكرة والنسيان، في إطار من الرعب النفسي والتشويق الفلسفي. تهدف الدراسة إلى الكشف عن الكيفية التي وظف بها الكاتب العلامات والرموز السردية لتجسيد عالم يختفي فيه الإنسان ليس موتاً، بل محواً تاماً من الوجود، حيث تُمحى صوره، وتُمسح ذكرياته، وينساه كل من عرفه، وكأنه لم يولد قط. اعتمد البحث المنهج السيميائي التحليلي لاستنطاق الأنساق المضمرة في النص، وقسمت الدراسة إلى تمهيد ومبحثين رئيسين وخاتمة؛ تناول التمهيد الأسس النظرية للسيميائيات والاختفاء في الأدب المعاصر، وركز المبحث الأول على "سيميائيات المحو والاختفاء" من خلال ثلاث آليات رئيسية: اختفاء الشخصيات، والمحو التقني والرقمي، والمحو الجسدي. بينما ركز المبحث الثاني على "سيميائيات الهوية والذاكرة" من خلال ثلاثة محاور: تشظي الهوية بين الحقيقة والمصطنع، وصراع الذاكرة والنسيان، وسيميائية الأسماء والأرقام. تخلص الدراسة إلى أن الرواية لا تكتفي بتصوير الاختفاء كحدث خارق، بل تغوص في دلالاته الفلسفية والنفسية، لتكشف عن هشاشة الوجود الإنساني في عصر تتلاشى فيه الحدود بين الحقيقة والوهم، وبين الذاكرة والنسيان، مؤكدةً أن الاختفاء في الرواية ليس مجرد أداة درامية، بل هو منظومة سيميائية تعيد إنتاج الخوف الوجودي من العدم.

الكلمات المفتاحية: سيميائيات الاختفاء، بلا أثر، محمد علي محمد، المحو، الذاكرة، الهوية، الرعب النفسي، السيميائيات السردية.

Abstract

This research examines the semiotics of disappearance in the novel "Bila Athar" (Without a Trace) by Muhammad Ali Muhammad, as a narrative text that operates on the duality of existence and non-existence, presence and absence, memory and oblivion, within a framework of psychological horror and philosophical suspense. The study aims to reveal how the author employs signs and narrative symbols to embody a world in which a person disappears not by death, but by complete erasure from existence, where their images are erased, their memories are wiped out, and everyone who knew them forgets them, as if they were never born. The research adopts a semiotic analytical approach to explore the implicit patterns within the text and is divided into an introduction, two main sections, and a conclusion. The introduction addresses the theoretical foundations of semiotics and disappearance in contemporary literature. The first section focuses on the "semiotics of erasure and disappearance" through three main mechanisms: the disappearance of characters, technological and digital erasure, and physical erasure. The second section focuses on the "semiotics of identity and memory" through three axes: the fragmentation of identity between the real and the artificial, the conflict of memory and oblivion, and the semiotics of names and numbers. The study concludes that the novel does not merely depict disappearance as a supernatural event but delves into its philosophical and psychological connotations, revealing the fragility of human existence in an era where the boundaries between truth and illusion, memory and oblivion, are fading,

affirming that disappearance in the novel is not merely a dramatic tool but a semiotic system that reproduces the existential fear of nothingness.**Keywords**: Semiotics of Disappearance, Bila Athar, Without a Trace, Muhammad Ali Muhammad, Erasure, Memory, Identity, Psychological Horror, Narrative Semiotics.

المقدمة

تُعد الرواية، بصفة عامة، مرآةً عاكسةً للواقع الإنساني بكل تعقيداته وتناقضاته، فهي لا تكتفي برصد الحاضر فحسب، بل تتجاوزه إلى استشراف المستقبل، سواء كان ذلك عبر آفاق اليوتوبيا المشرقة أو كوابيس الديستوبيا المظلمة. وفي سياق الأدب العربي المعاصر، اكتسبت روايات الرعب النفسي والتشويق زخماً ملحوظاً، لتصبح منبراً للتعبير عن القلق الوجودي، والتساؤل عن المصير والمآلات في ظل التحولات الاجتماعية والسياسية المتسارعة، خصوصاً فيما يتعلق بهشاشة الهوية وسهولة امحائها في عصر التكنولوجيا والرقمنة. ففي عصر أصبحت فيه الهوية الإنسانية مرتبطة بشكل وثيق بالبصمة الرقمية والذاكرة الجماعية، يبرز سؤال مصيري: ماذا لو اختفى الإنسان ولم يترك وراءه أي أثر؟تأتي رواية "بلا أثر" للكاتب محمد علي محمد لتشكل إضافة نوعية لهذا التيار الأدبي، مقدمةً نموذجاً سردياً فريداً يزاوج بين الواقعي والمتخيل، ويسبر أغوار النفس البشرية في مواجهة الخوف من العدم والنسيان. تدور أحداث الرواية حول البطل "مهاب" الذي يكتشف فجأة أن صديقه المقرب "سليم" قد اختفى اختفاءً تاماً؛ إذ لا يتذكره أحد، ولا توجد له أي صورة أو سجل، وكأنه لم يكن موجوداً يوماً. ومع محاولاته لكشف الحقيقة، يكتشف مهاب وجود منظمة سرية تُدعى "الظل" أو "بلا أثر"، تمارس محو الأشخاص من الوجود تماماً، ويدرك أنه هو نفسه ليس شخصاً عادياً، بل هو الناجي الوحيد من مشروع سري لتطوير تقنية مقاومة للمحو، وأن هناك شريحة مشفرة بداخله تحمل كل أسرار المنظمة. هذا التصوير المأساوي للاختفاء يضع الرواية في صميم أدب الرعب النفسي، الذي يهدف إلى كشف الجوانب المظلمة للوجود الإنساني، وتسليط الضوء على هشاشة الذاكرة والهوية في مواجهة قوى مجهولة. تتميز الرواية بكونها مرآة نقدية لعالم تتلاشى فيه الحدود بين الحقيقة والوهم، حيث تتجلى فيها سيميائيات الاختفاء عبر عدة أنساق مضمرة، منها نسق المحو التقني المتمثل في مسح الصور والسجلات والذاكرة الرقمية، ونسق المحو النفسي المتمثل في نسيان الناس لمن عرفوهم، ونسق المحو الوجودي المتمثل في تحول الإنسان إلى "بلا أثر" وكأنه لم يولد قط. كما تبرز الرواية صراعاً بين الذاكرة والنسيان، وتوظف تقنيات سردية مثل السرد بضمير الغائب، والاسترجاع، والتشويق، والرمزية، لتقديم رؤية فلسفية للوجود والعدم تتجاوز حدود النوع الأدبي التقليدي.انطلاقاً من هذه المعطيات، تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن سيميائيات الاختفاء في رواية "بلا أثر" لمحمد علي محمد، وتحليل كيفية صياغة الكاتب لهذه الملامح عبر بنيتها السردية والفنية. وتهدف الدراسة إلى الإجابة عن تساؤلات رئيسة، أهمها: ما هي أبرز تمثلات الاختفاء في هذه الرواية؟ وكيف وظف الكاتب العلامات والرموز السردية لتجسيد هذه التمثلات؟ وما هي الدلالات الفلسفية والنفسية التي تحملها هذه السيميائيات؟ وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تخرج في تمهيد ومبحثين رئيسين تسبقهما مقدمة، وتعقبهما خاتمة تتضمن أبرز النتائج والتوصيات، ثم قائمة بالمصادر والمراجع.

تمهيد: سيميائيات الاختفاء في الرواية المعاصرة

يقف مفهوم الاختفاء في مكانة خاصة بين الدراسات السيميائية والنقدية المعاصرة، لا لأنه يصف ظاهرة غامضة فحسب، بل لأنه يفعل ذلك بوعي نقدي مضمر يجعل من الخيال سلاحاً في مواجهة الخوف الوجودي. وما يميز هذا الحقل النقدي أنه لا يهرب من الحقيقة بل يواجهها مُقنعةً بالتخييل، محولاً القلق الإنساني من العدم والنسيان إلى مادة جمالية تُعري المسكوت عنه وتُضيء ما تُخفيه الذاكرة.وللوقوف على أصول هذا المفهوم، لا بدّ من العودة إلى الجذور السيميائية التي تحمل في طياتها دلالةً مكثفة؛ فالعلامة في السيميائيات "تعني في أصولها اليونانية: الشيء الذي يدل على غيره، وقد استعمل النقاد هذا المصطلح وقصدوا به تحليل النصوص الأدبية من خلال دراسة العلاقات بين الدوال والمدلولات، والكشف عن الأنساق المضمرة التي تشكل بنية النص" (البحيري، ٢٠٢١، ٢٠٠). وهذا التقابل بين الدال والمدلول ليس مجرد لعبة لغوية، بل هو محرك فلسفي يكشف كيف أن الاختفاء في النصوص الأدبية لا يعني العدم المطلق، بل يحمل دلالات متعددة تتعلق بالذاكرة والهوية والسلطة والخوف من الزوال.لقد اهتمت السيميائيات الحديثة، وخاصة منذ أعمال فرديناند دو سوسير وتشارلز ساندرز بيرس، بدراسة العلامات بوصفها نظاماً دالاً يتجاوز حدود اللغة إلى كل ما يمكن أن يحمل دلالة في الثقافة الإنسانية. وفي هذا السياق، يُعد الاختفاء علامة سيميائية مركزية في الأدب المعاصر، إذ يحمل دلالات متعددة تتقاطع مع مفاهيم الذاكرة، والهوية، والسلطة، والتكنولوجيا، والخوف الوجودي. وقد أشار رولان بارت في أعماله إلى أن "النص الأدبي ليس مجرد وعاء للمعنى، بل هو شبكة من العلامات المفتوحة على تأويلات متعددة" (بارت، ١٩٩٤، ٤٥). وهذا ما ينطبق بشكل خاص على رواية "بلا أثر"، حيث يتحول الاختفاء من حدث سردي إلى نظام سيميائي معقد يحمل دلالات متشابكة.ولعل أبرز ما يميز هذا الأدب أنه لا يكتفي بتصوير الاختفاء، بل يضعه في سياق فكري وأيديولوجي محدد، إذ يتمحور حول "التأكيد على هشاشة الوجود الإنساني وانتشار آليات المراقبة والتحكم، وتفشي الخوف وهيمنة القمع، ووأد الذاكرة وانتهاك الخصوصيات، وغير ذلك مما تفرزه الأنظمة السلطوية والتكنولوجية" (أبو طالب وآخرون، ٢٠٢٥، ٣٣٢).

وهذا التشخيص يكشف أن الاختفاء في الأدب ليس وليد مخيلة متشائمة عبثاً، بل هو استجابة أدبية لمنظومة سياسية وتكنولوجية تُعيد إنتاج الخوف بأشكال أكثر تطوراً وأعمق إيلاماً. ففي عصر البيانات الضخمة والمراقبة الشاملة، أصبح الخوف من فقدان الهوية ومن امحاء الأثر الرقمي هاجساً وجودياً يعكس قلق الإنسان المعاصر من هشاشة وجوده في عالم تسيطر عليه الآلة والرقمنة.وفي هذا الفضاء السردي، تتراكم ملامح الاختفاء لتُشكّل حبكةً يسودها "الخوف والغموض والقهر والظلم والضياع"، في عالم "يرى فيه الكاتب عالماً خيالياً مظلماً ومخيفاً يسوده الغموض ويحكمه الشر المطلق"، ويُوظَّف هذا كلّه "لتسليط الضوء على القضايا الموجودة في العالم الواقعي المتعلقة بالمجتمع والسياسة والسلطة والتكنولوجيا" (شقير، ٢٠٢٠، ١٦٠). وما يستوقف الناقد هنا هو تلك الازدواجية الجوهرية في بنية هذا الأدب: فهو يصف عالماً خيالياً بينما يستهدف واقعاً حقيقياً، ويستحضر المستقبل بينما يُشخّص الحاضر، مما يجعله من أكثر الأجناس الأدبية التصاقاً بالراهن.بيد أن رواية الرعب النفسي المعاصرة لا تكتفي بالتشخيص، بل تمضي نحو التشريح؛ فهي "تبني مآسيها على الواقع لتشريحه ونقده بغية ألا ننفصل عن تبعات المأساة المتخيلة" (عبد الحميد، ٢٠٢٥، ٢٥). وهذه الوظيفة التشريحية هي ما يمنح الرواية شرعيتها النقدية، ويُفرّق بينها وبين أدب الرعب التقليدي؛ فالرواية النفسية لا تخيف لتُمتّع، بل تُخيف لتُنبه، ولا تصف الانهيار لتُبرّره، بل لتُحرّض على مقاومته. وفي رواية "بلا أثر"، يتجلى هذا البعد النقدي في طرح أسئلة وجودية حول طبيعة الهوية والذاكرة، وفي كشف هشاشة البنى الاجتماعية والمعرفية التي تقوم عليها فكرة "الوجود" ذاته.وقد جاء الفضاء الزمني لهذا الأدب ليُعزّز هذه الوظيفة النقدية، إذ يستقر في "الحاضر التأملي، يتميز بالتجرد من الإنسانية، وسيطرة الأنظمة الشمولية، مجتمع يعاني من الخوف والمراقبة والانهيار المجتمعي والقمع" (خيرة ومصطفى، ٢٠٢٣، ٣٤٢). واللافت أن هذا الحاضر التأملي ليس هرباً من الواقع، بل هو الواقع ذاته مُكثَّفاً ومُجرَّداً من أقنعته، وكأن الكاتب يسرق الزمن القادم ليُواجه به القارئ بما يتغافل عنه في يومه الراهن. ورواية "بلا أثر" تقدم هذا الحاضر التأملي من خلال تصويرها لعالم تسيطر فيه منظمة غامضة على مصير الأفراد، وتمحو وجودهم وكأنهم لم يكونوا، وهو ما يعكس مخاوف معاصرة من فقدان السيطرة على الهوية في عصر التكنولوجيا.وإذا كانت "الرؤية النقدية تستخدم في بيئة واقعية مظلمة، وتكون اتجاهاتها وغاياتها متشائمة ومرعبة" (بن الشيخ، ٢٠١٨، ٦٥)، فإن هذا التشاؤم لا ينبغي أن يُقرأ قراءة سطحية بوصفه استسلاماً للعدمية؛ إذ إن الكاتب الذي يرسم عالماً قاتماً بهذه الدرجة إنما يُضمّن كتابته أملاً مستتراً في أن يكون ما يصفه حافزاً للتغيير لا نبوءةً قدرية. وهنا تكمن المفارقة الجمالية الكبرى في هذا الأدب: فكلما اشتدت قتامة العالم المرسوم، كلما تصاعدت الدعوة الضمنية إلى نقيضه. ففي "بلا أثر"، يمثل تدمير مهاب لقاعدة بيانات المنظمة فعلاً مقاومةً يمنح الأمل في إمكانية استعادة الهوية والذاكرة، حتى لو كانت النهاية مفتوحة على أكثر من احتمال.وتأسيساً على هذه الرؤى النقدية المتراكبة، تنبثق رواية "بلا أثر" للكاتب محمد علي محمد من هذا الفضاء المفاهيمي لتُشكّل تجربة سردية خاصة، تمزج بين شعرية الغموض وقسوة عالم يسوده الخوف من العدم والنسيان. ومن ثم تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الآليات السيميائية التي وظفها الكاتب في بناء عالمه السردي، وتتبّع تمثلاتها على مستوى الشخصية والمكان والزمان والرؤية السردية، وصولاً إلى فهم أعمق لما تقوله هذه الرواية عن الإنسان في عصر تتلاشى فيه الحدود بين الوجود والاختفاء.

المبحث الأول: سيميائيات المحو والاختفاء

يتخذ الفضاء السردي في رواية "بلا أثر" لمحمد علي محمد شكلاً رمزياً معقداً يعيد إنتاج الخوف الوجودي من خلال آليات المحو، حيث لا تغدو عملية الاختفاء مجرد حدث خارق، بل هي تمثل صارخ لانهيار الذاكرة والهوية في مواجهة قوى مجهولة. إن هذه الآليات السيميائية تعكس بنية نفسية مفخخة تقوم على محو الأثر الإنساني، مما يولد حالة من الرعب الوجودي؛ حيث يصبح الأفراد "يعيشون في خوف وانعدام للإنسانية، وشاغلهم الشاغل هو البقاء، ويخشون العالم الخارجي" (إنجي خالد أحمد، اليوتوبيا والديستوبيا في رواية أحمد خالد توفيق، دار العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٢٤، ص٢٠٤)وتتجلى أيضاً سيميائية الاختفاء في الرواية من خلال آليات المحو المتعددة: محو الصور، ومحو الذاكرة، ومحو السجلات، ومحو الوجود ذاته. إن هذا "الجحيم الأرضي" في رواية محمد علي محمد لا يتمثل فقط في اختفاء الأشخاص، بل في انهيار المنظومة المعرفية التي تؤكد وجود الإنسان، مما يعمق الشرخ بين الفرد والمجتمع، ويجعل من الاختفاء قوة قمعية تشارك في سحق الشخصية واغترابها. وبذلك، تصبح آليات المحو مرآة للخراب الداخلي، حيث يتحول استلاب الذاكرة إلى استلاب للكينونة ذاتها، ويصبح الصراع من أجل البقاء هو المسعى الدائم لشخصيات لم تعد تثق في أي نظام يهدد وجودها.وتجدر الإشارة إلى أن الرواية تقدم ثلاث مراحل للمحو: المرحلة الأولى هي محو الأثر الرقمي (الصور، الحسابات، السجلات)، والمرحلة الثانية هي محو الذاكرة الجماعية (نسيان الناس للشخص الممحو)، والمرحلة الثالثة هي المحو الجسدي (تلاشي الجسد نفسه). هذه المراحل الثلاث تشكل نظاماً سيميائياً متكاملاً يعكس تدرج الاختفاء من الخارج إلى الداخل، ومن الأثر إلى الذات.

أولاً: سيميائية اختفاء الشخصيات

تتأسس سيميائية الاختفاء في الرواية على اختفاء الشخصيات كعلامة دالة على هشاشة الوجود الإنساني. فاختفاء "سليم" ليس مجرد حدث درامي، بل هو علامة سيميائية تحمل دلالات متعددة تتعلق بالذاكرة والهوية والخوف من العدم. إن اختفاء سليم يمثل النموذج الأولي للاختفاء في الرواية، وهو النموذج الذي سيتبعه اختفاء آخرون، وسيهدد مهاب نفسه.يقول الكاتب في بداية الرواية: "استيقظ (مهاب) على صوت هاتفه يرن بلا توقف. نظر إلى الشاشة، كان المتصل صديقه المقرب سليم. رد عليه، لكن لم يسمع سوى صوت متقطع وصراخ بعيد. 'مهاب... لو سمعت الرسالة دي... اوعى تدور وراهم...' ثم انقطع الاتصال. حاول مهاب الاتصال مجدداً، لكن الرقم أصبح غير موجود" (محمد، ٢٠٢٣، ص٤)هذا المقطع يكشف آلية الاختفاء السيميائية بأسلوب يُضمر أكثر مما يُصرّح. اختفاء سليم ليس موتاً، بل محواً تاماً من الوجود، وكأنه لم يكن موجوداً قط. الرقم الذي أصبح "غير موجود" هو علامة على انقطاع التواصل، وهو أول مؤشر على المحو. لكن العلامة الأهم تأتي في المشهد التالي، حيث يتحول الاختفاء من حدث فردي إلى ظاهرة كونية تمس بنية الواقع نفسه."في الصباح ذهب إلى منزل سليم. طرق الباب. فتحت له أم سليم ونظرت إليه باستغراب. 'حضرتك عايز مين؟' 'سليم... ابنك.' ساد الصمت. ثم قالت: 'أنا معنديش ابن اسمه سليم.' تجمد مهاب في مكانه" (محمد، ٢٠٢٣، ص٤)هنا تظهر سيميائية المحو في أقصى تجلياتها: فاختفاء سليم لم يقتصر على غيابه الجسدي، بل امتد إلى محو ذاكرته من وعي أقرب الناس إليه، أمه التي لا تتذكره. هذا التحول اللغوي من "ابني" إلى "معنديش ابن" هو علامة على اكتمال عملية المحو، حيث تُمحى العلاقات الأسرية والعاطفية بالكامل. إن نسيان الأم لابنها هو أقصى درجات العنف السيميائي، لأنه ينفي العلاقة البيولوجية والنفسية التي تفترض أنها الأكثر رسوخاً في الذاكرة الإنسانية."أخرج صورة تجمعه بسليم من هاتفه. لكن الصورة كانت قد تغيرت... كان يقف وحده" (محمد، ٢٠٢٣، ص٤)الصورة كعلامة بصرية على وجود سليم، تتحول إلى علامة على غيابه، حيث يختفي من الصورة وكأنه لم يكن موجوداً. هذا التحول السيميائي يعكس جوهر الاختفاء في الرواية: ليس مجرد غياب جسدي، بل محو كل الأثر الدال على الوجود. الصورة التي كانت تؤكد وجود سليم، تتحول إلى دليل على عدم وجوده، وهذا التناقض السيميائي هو ما يخلق الرعب النفسي في الرواية.ويتكرر هذا النمط من الاختفاء مع شخصيات أخرى، حيث يختفي الأشخاص وكأنهم لم يكونوا، وتُمحى كل آثارهم من الوجود. هذا التكرار يحول الاختفاء من حدث استثنائي إلى قاعدة كونية، مما يعمق الشعور بالخوف والقلق لدى البطل والقارئ على حد سواء.

ثانياً: سيميائية المحو التقني والرقمي

تمثل الرواية المحو التقني كآلية أساسية في اختفاء الأشخاص. حيث تختفي الصور، وتُمحى الحسابات الرقمية، وتُمسح السجلات، وكأن الشخص لم يكن موجوداً في الفضاء الرقمي الذي أصبح جزءاً أساسياً من الهوية المعاصرة. في عصر أصبحت فيه الهوية الرقمية جزءاً لا يتجزأ من الوجود الإنساني، فإن محو الأثر الرقمي يعادل محو الوجود ذاته.يقول الكاتب: "عاد إلى منزله وفتح الباب... وجلس يتصفح حسابات سليم على مواقع التواصل. اختفت. رقمه اختفى. صوره اختفت. كل شيء اختفى. كأن سليم لم يكن موجوداً يومًا" (محمد، ٢٠٢٣، ص٥).السيميائية الرقمية هنا بالغة الدلالة: اختفاء الحسابات والصور والرقم هو محو للوجود الرقمي، وهو ما يعادل في العصر الحديث محو الهوية ذاتها. ففي عصر أصبحت فيه الهوية رقمية بدرجة كبيرة، فإن محو الأثر الرقمي يعني محو الوجود الإنساني نفسه. وهذا يعكس خوفاً معاصراً من سهولة امحاء الهوية في عصر التكنولوجيا، حيث يمكن لأي نظام أن يمحو وجود أي شخص من قواعد البيانات والسجلات، وكأنه لم يكن موجوداً. إن سرعة الاختفاء الرقمي وشموليته يعكسان هشاشة الوجود الإنساني في مواجهة الأنظمة التقنية التي يمكنها أن تقرر من يبقى ومن يختفي."وفي تلك الليلة: وجد ورقة تحت باب غرفته مكتوب عليها: 'لقد لحظنا الاختفاء'. وفي أسفل الورقة رمز غريب على شكل عين سوداء" (محمد، ٢٠٢٣، ص٥)الرسالة كعلامة لغوية والرمز كعلامة بصرية (العين السوداء) يشكلان معاً نظاماً سيميائياً مزدوجاً يحمل دلالات التهديد والمراقبة. العين السوداء هي علامة على أن هناك من يراقب ويرى كل شيء، مما يعمق الشعور بالخوف والاضطهاد. هذا الرمز يتكرر في الرواية كعلامة على حضور المنظمة الغامضة، وكتذكير دائم للبطل بأنه مرصود، وأن اختفاءه قد يكون الخطوة التالية.وتتوسع سيميائية المحو التقني لتشمل ليس فقط وسائل التواصل الاجتماعي، بل كل أشكال السجلات الرقمية والورقية. فالمنظمة لا تكتفي بمحو الحسابات الرقمية، بل تمحو السجلات الرسمية، وشهادات الميلاد، والوثائق الرسمية، مما يجعل الشخص معدماً قانونياً ووجودياً في آن واحد. هذا المحو الشامل يعكس رعباً معاصراً من فقدان الهوية الرسمية، ومن التحول إلى شخص "بلا أثر" في سجلات الدولة والمجتمع.

ثالثاً: سيميائية المحو الجسدي

تتجاوز الرواية المحو التقني إلى المحو الجسدي المباشر، حيث تبدأ أجزاء من جسد مهاب في التلاشي تدريجياً، وكأن عملية المحو تبدأ من جسده قبل أن تمتد إلى ذاكرته ووجوده. هذا المستوى من المحو هو الأكثر رعباً، لأنه يمس الجسد المادي الذي يفترض أنه أكثر جوانب الوجود ثباتاً.يقول الكاتب: "الصدمة الحقيقية كانت عندما نظر إلى المرآة. فوجد أن صورته بدأت تتلاشى من طرف كتفه الأيمن.. وكأن شخصاً ما بدأ يمحو وجوده. بلا أثر" (محمد، ٢٠٢٣، ص٥)تلاشي الصورة في المرآة هو علامة سيميائية قوية على بداية عملية المحو الجسدي. المرآة التي تعكس الوجود وتؤكد الهوية، تتحول هنا إلى أداة لتأكيد الاختفاء والزوال. هذا المشهد يحمل دلالة فلسفية عميقة: الوجود الإنساني ليس ثابتاً، بل هو قابل للزوال والامحاء في أي لحظة. إن تلاشي الصورة في المرآة هو بمثابة إنذار بزوال الذات، وتحول الإنسان إلى مجرد ذكرى تتلاشى، ثم إلى لا شيء."رفع المقنع يده. فبدأت ذراع مهاب اليمنى تتلاشى. اختفت أصابعه تدريجياً وكأنها تتحول إلى غبار أسود. صرخ مهاب من الرعب" (محمد، ٢٠٢٣، ص١٢)تلاشي الذراع والتحول إلى غبار أسود هو علامة بصرية على المحو الجسدي. الغبار الأسود يحمل دلالة رمزية على الموت والزوال، لكنه هنا ليس موتاً بيولوجياً، بل هو محو وجودي يسبق الموت. اختفاء الأصابع تدريجياً يشير إلى أن عملية المحو تتم ببطء، وأن الضحية يعيش تجربة الرعب الكاملة وهي تتراقص أمام عينيه. هذا المشهد هو ذروة الرعب الجسدي في الرواية، حيث يتحول الجسد من كيان مادي ثابت إلى مادة متلاشية، وكأن قوانين الفيزياء نفسها تتهاوى أمام قوة المنظمة.ويتكرر هذا النمط من المحو الجسدي في مشاهد أخرى، حيث يختفي والد مهاب أمام عينيه بعد أن ضغط يوسف على الزر. هذا المشهد يضيف بُعداً جديداً للمحو الجسدي: ليس فقط محو البطل نفسه، بل محو من يحبهم، مما يضاعف من وطأة الرعب النفسي. إن رؤية الأب وهو يختفي أمام عينيه هي تجربة تدميرية للبطل، لأنها تجمع بين فقدان الحبيب وفقدان الأمل في مقاومة المنظمة.

المبحث الثاني: سيميائيات الهوية والذاكرة

لا تكتفي رواية "بلا أثر" ببناء عالم من المحو والاختفاء، بل تمضي إلى ما هو أعمق: سيميائية الهوية والذاكرة، حيث تتشابك علامات الوجود والغياب لتشكل نظاماً سيميائياً معقداً يكشف عن هشاشة الهوية الإنسانية وسهولة امحائها. فالهوية في الرواية ليست كياناً ثابتاً، بل هي بناء متغير يمكن تشكيله وإعادة تشكيله، بل ومحوه بالكامل. والذاكرة ليست مستودعاً أميناً للماضي، بل هي ساحة صراع بين قوى التذكر وقوى النسيان.

يتوزع هذا المبحث على ثلاثة محاور متشابكة: تشظي الهوية بين الحقيقة والمصطنع، وصراع الذاكرة والنسيان، وسيميائية الأسماء والأرقام. هذه المحاور الثلاثة تشكل معاً نظاماً سيميائياً متكاملاً يعكس أزمة الهوية والذاكرة في العصر الحديث، حيث أصبحت الحدود بين الحقيقي والمزيف، بين المتذكر والمنسي، بين الاسم والرقم، غير واضحة المعالم.

أولاً: تشظي الهوية بين الحقيقة والمصطنع

تبني الرواية عالماً تتشظى فيه الهوية بين ما هو حقيقي وما هو مصطنع، حيث يكتشف مهاب أنه ليس شخصاً عادياً، بل هو نتاج مشروع سري يهدف إلى صناعة كائن مقاوم للمحو. هذا الاكتشاف يهز أسس هويته، ويجعله يتساءل: من أنا حقاً؟ هل أنا شخص حقيقي أم مجرد تجربة؟يقول الكاتب على لسان الدكتور كريم، والد مهاب الحقيقي"منذ أكثر من عشرين عامًا، كنت جزءًا من مشروع سري يُعرف باسم 'بلا أثر'. كان المشروع يهدف إلى تطوير تقنية تستطيع محو أي شخص من جميع السجلات الرقمية والورقية. كأنه لم يوجد يوماً" (محمد، ٢٠٢٣، ص١٩).هذا المقطع يكشف عن البعد السيميائي للهوية في الرواية: مهاب ليس مجرد شخص، بل هو علامة داخل نظام سيميائي أكبر، هو مشروع "بلا أثر". وجوده كله كان مشروطاً بكونه جزءاً من تجربة، وليس كائناً حراً مستقلاً. هذا التشظي في الهوية يعكس قلقاً معاصراً من فقدان الذات في عصر تسوده أنظمة التحكم والمراقبة. فكما أن مهاب كان مجرد رقم في مشروع، فإن الإنسان المعاصر أصبح مجرد بيانات في أنظمة الحوكمة الرقمية."المشروع رقم ١٣: الناجي الوحيد من عملية المحو الكاملة" (محمد، ٢٠٢٣، ص١٣).الرقم ١٣ كعلامة عددية يحمل دلالات متعددة: هو رقم الحظ السيئ في كثير من الثقافات، وهو أيضاً رقم يشير إلى التفرد والتميز (الناجي الوحيد). لكن الأهم أنه يحوّل مهاب من شخص إلى رقم، من هوية إلى مجرد علامة في نظام إداري، وهذا هو جوهر اغتراب الهوية في الرواية. إن تحويل الإنسان إلى رقم هو شكل من أشكال نزع الإنسانية، حيث يصبح الفرد مجرد وحدة في نظام إحصائي يمكن التحكم به وتصفيته."الشريحة التي بداخلك هي الحل الوحيد للقضاء على منظمة بلا أثر" (محمد، ٢٠٢٣، ص٢٠)الشريحة كعلامة سيميائية تختزل كل شيء: هي بيانات المشروع، وهي هوية مهاب، وهي سلاحه الوحيد. هذا التكثيف السيميائي يجعل من الشريحة علامة جامعة تحمل كل دلالات الصراع بين الخير والشر، بين الوجود والعدم. إن وجود الشريحة داخل جسد مهاب يعني أن هويته ووجوده مرتبطان بآلية تقنية يمكن التحكم بها، مما يجعله عرضة للاختفاء في أي لحظة.

ثانياً: صراع الذاكرة والنسيان

تمثل الذاكرة في الرواية ساحة الصراع الرئيسية بين قوى الخير وقوى الشر. فالمنظمة تسعى إلى محو الذاكرة الفردية والجماعية، بينما يحاول مهاب استعادة ذاكرته وهويته. هذا الصراع يعكس توتراً أساسياً في الوجود الإنساني بين الرغبة في التذكر والرغبة في النسيان، بين الحفاظ على الهوية وفقدانها.يقول الكاتب: "لم ينم مهاب تلك الليلة. ظل يحدق في المرآة وهو يراقب الجزء المتلاشي من كتفه. كان الأمر حقيقياً. لم يكن حلماً أو وهماً" (محمد، ٢٠٢٣، ص٧)المرآة هنا ليست مجرد سطح عاكس، بل هي علامة على الوعي الذاتي. قدرة مهاب على رؤية اختفائه في المرآة تعني أنه لا يزال واعياً، وأن ذاكرته لم تُمحَ بعد. لكن السؤال الذي تطرحه الرواية: كم من الوقت سيستمر هذا الوعي قبل أن يُمحى تماماً؟ إن المرآة كعلامة سيميائية تتضاعف دلالاتها في هذه الرواية: فهي تؤكد الوجود في نفس اللحظة التي تؤكد فيه الاختفاء، مما يخلق توتراً سيميائياً يعكس أزمة الهوية. "أخرج الرجل صورة قديمة. في الصورة أربعة شباب. أشار إلى ثلاثة منهم. 'هؤلاء كانوا أصدقائي.' 'وأين هم الآن؟' رد الرجل بصوت مكسور: 'لا أعرف... لأنني لا أتذكر أسماءهم'" (محمد، ٢٠٢٣، ص٩)محو الأسماء هو محو للهويات. الرجل الذي نجا من المنظمة لم ينجُ من فقدان ذاكرته. فهو يتذكر أن لديه أصدقاء، لكنه لا يتذكر أسماءهم. هذا التناقض هو جوهر المأساة: أن تعرف أن هناك من تحبهم، لكنك لا تستطيع تذكرهم. هذا هو العنف السيميائي الأعمق: محو العلامات الدالة على الآخرين في الذاكرة. إن فقدان الأسماء يعني فقدان القدرة على استدعاء الهويات، وتحويل الأشخاص إلى مجرد أشباح في الذاكرة.ويتجلى صراع الذاكرة والنسيان بشكل أكثر حدة في نهاية الرواية، حيث يجد مهاب ملفاً يحتوي على كل تفاصيل حياته، وكأن حياته كلها كانت مسجلة ومحددة سلفاً."فتح الملف، فوجد بداخله كل شيء... كل لحظة عاشها، كل قرار اتخذه، حتى أفكاره التي ظن أنها تخصه وحده" (محمد، ٢٠٢٣، ص٢٧).الملف كعلامة سيميائية يمثل السيطرة الكاملة على حياة مهاب. وجود كل تفاصيل حياته في ملف واحد يعني أنه لم يكن حراً قط، وأن كل شيء في حياته كان مرصوداً ومسجلاً. هذا يعكس رعب المراقبة الشاملة الذي يسيطر على الإنسان المعاصر في عصر البيانات الضخمة. إن معرفة أن كل لحظة من حياتك مسجلة ومرصودة تخلق شعوراً بالاغتراب وفقدان الذات.

ثالثاً: سيميائية الأسماء والأرقام

تلعب الأسماء والأرقام دوراً محورياً في البناء السيميائي للرواية، حيث تتحول من علامات دالة إلى علامات مهددة أو فارغة. في عالم "بلا أثر"، تصبح الأسماء غير مستقرة، والأرقام تحل محل الهويات، والعلامات تفقد دلالاتها الأصلية."الرجل الذي أمامه كان يشبهه بشكل كبير. نفس العينين. نفس الملامح. ونفس النظرة الحادة" (محمد، ٢٠٢٣، ص١٩).تشابه الوجهين هو علامة سيميائية على ازدواجية الهوية. وجود شخص يشبه مهاب تماماً، ويدّعي أنه والده، يخلق حالة من الارتباك السيميائي: من هو الحقيقي؟ ومن هو المزيف؟ هذا التشابه يعكس أزمة الهوية في العصر الحديث، حيث تتشابه الوجوه وتختلط الهويات، وتصبح الحدود بين الذات والآخر غير واضحة.وتتضاعف دلالة الأسماء في الرواية من خلال اسم المنظمة نفسها: "بلا أثر". هذا الاسم يحمل دلالة مزدوجة: فهو يصف ما تفعله المنظمة (محو الأثر)، وهو أيضاً وصف لمصير ضحاياها (يصبحون بلا أثر). هذا التكرار الدلالي يعكس جوهر الرعب في الرواية: الخوف من أن يصبح المرء "بلا أثر"، وكأنه لم يكن موجوداً قط."نظر للسماء وقال بصوت منخفض: 'لو كنت مجرد تجربة... ليه حاسس بكل ده حقيقي؟'" (محمد، ٢٠٢٣، ص٢٨).هذا السؤال الأخير هو جوهر السيميائية الوجودية في الرواية: إذا كان كل شيء تجربة ووهماً، فلماذا يشعر بالألم والخوف والحب وكأنها حقيقية؟ الإجابة التي توحي بها الرواية هي أن الشعور هو العلامة الأكثر صدقاً على الوجود، حتى لو كان العالم كله مجرد محاكاة. فالمشاعر، والألم، والخوف، والحب، هي علامات لا يمكن تزييفها أو محوها بسهولة، وهي ما يمنح الوجود الإنساني معناه، حتى في مواجهة العدم.وتنتهي الرواية بنهاية مفتوحة تاركة القارئ يتساءل: هل نجح مهاب حقاً في الهروب، أم أنه ما زال داخل التجربة؟ هذا السؤال المفتوح هو علامة سيميائية أخرى على عدم استقرار المعنى في الرواية، وعلى هشاشة الحدود بين الحقيقة والوهم، بين الوجود والاختفاء.

الخاتمة

تأسيساً على ما تقدم، نخلص إلى أن رواية "بلا أثر" لمحمد علي محمد قدمت نموذجاً سردياً فريداً في أدب الرعب النفسي العربي، حيث نجح الكاتب في توظيف السيميائيات والرمزية لتعرية هشاشة الوجود الإنساني وسهولة امحائه أمام آليات المحو المتعددة؛ وقد أثبتت الدراسة أن الرواية تجاوزت الوصف السطحي للاختفاء لتقدم تشريحاً سيميائياً لآليات المحو والنسيان، مبيّنةً كيف تتحول العلامات الدالة على الوجود (الصور، الأسماء، السجلات، الذاكرة) إلى علامات على الغياب والعدم، مما يجعل من هذا العمل الأدبي مرآة نقدية حادة تستشرف مآلات الخوف والانهيار الوجودي في الواقع المعاصر.تكشف الرواية عن أنماط الاختفاء المتعددة التي تهدد الوجود الإنساني: الاختفاء الجسدي، والاختفاء الرقمي، والاختفاء من الذاكرة الفردية والجماعية. غير أن الرواية لا تكتفي بتصوير هذه الأنماط، بل تقدم تأملاً فلسفياً في طبيعة الوجود والهوية، من خلال شخصية مهاب التي تمثل صراع الإنسان مع قوى مجهولة تسعى إلى محو وجوده. إن صراع مهاب مع منظمة "بلا أثر" هو صراع كل إنسان مع قوى النسيان

والزوال، مع الخوف من أن يصبح "بلا أثر" بعد رحيله.وتخلص الدراسة إلى أن "بلا أثر" ليست مجرد رواية عن الاختفاء، بل هي رواية عن إمكانية المقاومة من خلال الوعي والذاكرة. البطل الذي يبدأ الرواية كضحية، ينتهي كمنتصر على المنظمة بتدمير قواعد بياناتها، لكن النهاية المفتوحة للرواية تترك القارئ يتساءل: هل نجح مهاب حقاً في الهروب، أم أنه ما زال داخل التجربة؟ هذا السؤال هو جوهر الرسالة الفلسفية للرواية: الوجود الإنساني هش وقابل للزوال، لكن المقاومة والوعي هما ما يمنحانه معنى. فحتى لو كان العالم كله مجرد محاكاة، فإن الشعور والألم والخوف والحب هي علامات على وجود حقيقي لا يمكن محوه بسهولة.وتؤكد الرواية في النهاية أن الأثر الحقيقي للإنسان ليس في الصور أو السجلات، بل في الذاكرة الحية للآخرين، وفي المشاعر التي يتركها في قلوب من عرفوه. وهذا هو المعنى العميق لعنوان الرواية: "بلا أثر" ليس وصفاً لمصير محتوم، بل هو تحذير من مصير يمكن تجنبه بالوعي والمقاومة والتذكر.

المصادر

١. إبراهيم أبو طالب وآخرون، مراحل الرواية في اليمن، عناوين بوكس، ط١، ٢٠٢٥.

٢. أحلام بن الشيخ، مشهديات اليستوبيا في رواية جملكية أربيا لواسيني الاعرج، مجلة دراسات أدبية، عدد٦، ٢٠١٨.

٣. أحمد شقير، أصل الحكاية صفحات منسية من التاريخ الحديث، دار المصري للنشر والتوزيع، ٢٠٢٠.

٤. أسامة محمود البحيري، معجم المصطلحات الأدبية والنقدية، دار النابغة للنشر والتوزيع، ط١، مصر، ٢٠٢١.

٥. إنجي خالد أحمد، اليوتوبيا والديستوبيا في رواية أحمد خالد توفيق، دار العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٢٤.

٦. جلال برجس، معزوفة اليوم السابع، دار الشروق، ط١، مصر، ٢٠٢٥.

٧. زينب محمد عبد الحميد، يوتوبيا وديستوبيا الثورة، كتاب 2025 ،inc.

٨. سالم العوكلي، ليبيا وأدب الديستوبيا، موقع الوسط، ٢٠١٩. https://alwasat.ly/news/opinions/238465?author=1

٩. فاطمة برجكاني، الديستوبيا المدينة الفاسدة في الرواية العربية المعاصرة: قراءة في رواية أورويل في الضاحية الجنوبية لفوزي ذبيان، مجلة اضواء نقدية في الأدبين العربي والفارسي، عدد٢٩، ٢٠١٨.

١٠. فتحي خيرة، مسيردي مصطفى، العجائبية والبعد الديستوبي في الرواية الجزائرية المعاصرة، مجلة النص، مجلد١٠، عدد١، الجزائر، ٢٠٢٣.

١١. فريدة جمعان القريناوي، تجليات الديستوبيا في الرواية الجزائرية رواية وطن من زجاج لياسمينة صالح انموذجاً، المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، عدد٢، ٢٠٢٣.

١٢. محمود محمد السعيد أبو زهرة، ملامح الديستوبيا في رواية يوتوبيا للكاتب أحمد خالد توفيق ١٩٦٢-٢٠١٨، مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة، العدد٣٩، ٢٠٢٠.

١٣. منصف بن خير الدين، محمد بن عسكر، تجليات الديستوبيا في رواية زنقة الطليان لبومدين بلكبير، رسالة ماجستير، المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف لميلة، الجزائر، ٢٠٢٤.

١٤. محمد علي محمد، بلا أثر، إعداد عاصم عبادي، مؤلف مساعد منه ثروت فاروق، ٢٠٢٣.

١٥. رولان بارت، دراسات نقدية، ترجمة محمد برادة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٤.